تخبُّط

سألني سؤالا رأيتُه غامضًا ومليئًا بالأسئلة في الوقت ذاته:

- لماذا كلُّ هذا؟

ثم صمتَ. ترك الدموع تتشاجر في عينيه. لم أجدْ إجابةً ولم أستطع أن أستسيغَ سببًا. لم أستطع أن أحتمل صراع الدماء وهي تُداس على الإسفلت رخيصةً كترابِ وطنٍ.

عندما استدرنا لنبتعد قبل أن نموت من ارتفاع الضغط أو توقُّفِ القلب أو الألمِ الطاغي، استوقَفَنَا شُرْطِيٌّ ليسألنا عن هويتنا وسَبَبِ تواجدِنا في هذا المكان، كأننا لا يحقُّ لنا سوى أن نتفرَّجَ على مَشَاهِدَ الدَّمِ في التليفزيون كفيلمٍ لا علاقةَ لنا به. كنت أودُّ أن أسألَه:

- وأين كنتَ قَبْلَ ساعةٍ من الآن؟

لكنني خشيتُ أن يحوِّل السؤالَ ذاته إلى تهمةٍ تستوجب الاعتقالَ. نظرتُ إليه بحدَّةٍ مُقنَّعَةٍ عندما سأل مُستفِزًّا:

- وما الذي جَمَعَكُمَا؟

كنتُ أودُّ أن أقول له:

- وهل الديانة سببٌ في الفُرقة؟

أو أقول له:

- وهل أنت تسعد بفُرقتنا؟

لكنني لم أضمن ذكاءه، وخشيتُ أن يتعامل كالمعتاد ليقودنا إلى حيث لا ندري، فنخسر ما قد يُمْكِنُنَا أن نشارك به في تخفيف المأساة. قلتُ بقدر ما استطعت من افتعال المزاح:

- يا باشا. اليوم عيد وجئت لأحتفل مع صديقي.

ولم تسمح المرارةُ لصديقي أن يقول شيئا. قبل أن يتطور الوضع إلى أسئلة أخرى ومحاولة منا لتجنُّب العبث، صدر صوت من جهاز اللاسلكي الذي بيد الشرطي يأمره بالذهاب، فانصرف.

أَخَذْنَا نجوب الشوارع بحثا عن نسمة هواء قديمة لم تلوِّثها الحرائق، لم تبدِّدها الانفجارات ولا الأصواتُ المتخبِّطة.

٣ يناير ٢٠١١